المحاضرة الرابعة عشرة

اين تعلم المتنبي

— ٦ —

عرفنا اين ولد المتنبيء ، وعلمنا ما تيسر لنا علمه من نسبه وعروبيته ، فأين تعلم القراءة والكتابة ، واين طلب أدبه ولغته ، وهل كان لمدرسته آثار في عبقريته ، هذا ما أبحث عنه واياكم في مجلسنا هذا .

قال ابو الحسن محمد بن يحيى العلوي : كان ابو الطيب محباً للعلم والادب فصحب الاعراب في البادية وجاءنا بعد سنين بدوياً قحاً ، وكان تعلم القراءة والكتابة فلزم اهل العلم والادب واكثر من ملازمة الورّاقين فكان علمه من دفاترهم .

وقال الثعالبي : ذكرت الرواة ان اباه سافر به الى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ، ومن مدرها الى وبرها ويسلمه من المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه وضوامن النجح فيه ، حتى توفي ابوه وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع .

وقال صاحب الطبقات : وأقام بالبادية وطلب الادب وعلم العربية ونظر في ايام الناس .

وقال ابن خلكان : واشتغل بفنون الادب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل ان الشيخ ابا علي الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال يوماً : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ، فقال المتنبيء في الحال ، حجلى وظربى ، قال الشيخ ابو علي : « فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على ان اجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجده » .

من هذا يتبين لكم ان اباالطيب قد جهد نفسه في طلب الادب واللغة فكانت له دفاتر يدرسها في الليل وربما مضى من الليل اكثره وهو يدرس وكان كثير الاشفاق على هذه الدفاتر اذا سافر اخذها معه لانه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً ، ولسنا نعرف هذه الدفاتر ولا ندري بما كانت تشتمل عليه ، وانما نقل عنه انه كان يروي شعر ابي تمام ويقول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« او يجوز للاديب ان لا يعرف شعر ابي تمام ، وهو استاذ كل من قال الشعر بعده » فالمتنبي درس كثيراً وقرأ كثيراً فمن الشعراء الذين نظر في شعرهم البحتري وابن الرومي وابو تمام ومسلم بن الوليد و بشار وابو نواس وابن المعتز والفرزدق وعمرو بن كلثوم وامرؤ القيس والاعشى وبعض رجاز العرب وغيرهم من الذين لا يخلو شعره من رسومهم واني لاجاوز في هذا المقام الاشارة الى ثقافته العامة فأتخطّى الكلام على تجاربه في الحياة وعلى مافتقت له هذه التجاريب من ضروب الحكم :

اذا ما الناس جربهم لبيب فاني قد اكلتهم وذاقا

واتخطّى الكلام على نظراته الفلسفية مرجئاً هذا كله الى حين البحث عن هذه النظرات فلا اتعرض في هذا المجلس الا لآثار مدرسته الاولى في شعره .

للبادية في ثقافة المتنبيء آثار ظاهرة على شعره في كل طور من اطوار هذا الشعر فهو ابن البيد والفيافي من افق البادية درج خياله ، وفي جو البادية نما هذا الخيال فلا عجب اذا علقت بذهنه صور هذه البادية ، الف المتنبيء ابل البادية وخيلها ومهامهها ومفاوزها وغزوها وصيدها وسيوفها وقناها ، فلا تجدون في كثير من شعره فرقاً بينه وبين الاعراب الذين صحبهم في التغني بكل امر من امور البادية ولا يكاد شعره يخلو من آثار صهيل الخيل وقعقعة اللجم وصرير العوالي ، فالبادية اول مدرسة درس فيها المتنبيء وكما ان للبيئة وللزمن وللدم تأثيراً في العبقرية فكذلك التربية فانها لا تخلو من التأثير في الاذهان ، الف المتنبيء البادية فلم يخف عليه امر من امورها ولم تشكل عليه اللغة التي يحتاج اليها ابن البادية في وصف ابله وخيله وسلاحه وضروب ذلك ، وقد رسخت في ذهنه صور البادية من حداثة سنه الى آخر يوم من ايامه ، حتى انه اذا فارق الاعراب وجالس الملوك والامراء والوزراء ، كانت صور البادية ترجع الى ذهنه من حين الى آخر فلست اعرف شاعراً اعند من المتنبيء في الحرص على آثار تربيته الاولى ، جالس الملوك والامراء والوزراء فلم يقلع عن اعرابيته ، وعرضت عليه الحضارة مشاهد رائعة فلم تنزع به عن بدويته ، فقد غلبت عليه صور البادية فلنبين هذا الامر على قدر مايتسع له مجلسنا .

للمتنبيء اربعة اطوار في شعره ، طور وهو يجول في اقطار الشام قبل اتصاله بسيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدولة ، وطور وهو في ظلال سيف الدولة وطور وهو في حضرة كافور الإخشيدي وطور وهو في بلاد فارس ، فلننظر في آثار البادية على شعره في كل طور من هذه الاطوار الاربعة .

لما كان المتنبيء يجوب آفاق الشام ويمدح رجالها وذلك في اول نشأته وترعرعه كانت آثار الثقافة البدوية ظاهرة على شعره كل الظهور فان خياله الذي نما في البادية كان خيالاً على فطرته الاولى فكأنه اعرابي لم يألف الحضر .

برغني السرى برغي المدى فرددني اخف على المركوب من نفسي جرمي
ابصر من زرقاء جو لانني متى نظرت عيناي سواهما علمي
كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأني بنى الاسكندر السد من عزمي

فالاشارة الى السرى والى حدة البصر والى الخبرة بالارض كل هذا من مذاهب اهل البدو الذين لا يقيمون ببقعة من الارض دون بقعة .

اواناً في بيوت البدو رحلي وآونة على قتد البعير

فتارةً كان يتغنى ببنات الجديل و بالفته المجاهل والفلوات .

نحن ركب ملجن في زي ناس فوق طير لها شخوص الجمال
من بنات الجديل تمشي بنا في البيد مشي الايام في الآجال
كل هوجاء للدياميم فيها اثر النار في سليط الذبال

وتارة كان يتغنى بسيفه :

كفرندي فرند سيفي الجراز لذة العين عدة للبراز
تحسب الماء خط في لهب النار ادق الخطوط في الاحراز
كلما رمت لونه منع الناظر موج كأنه منك هازي .....
ودقيق قذى المياه انيق متوال في مستوى هزهاز

الى آخر ما وصف به هذا السيف .

هكذا كان دأبه في الشدو بأمور البادية ولقد تجلت شنشنته هذه في اراجيزه التي كان يتشبه فيها بالاعراب منها ارجوزته :

ما للروج الخضر و لحدائق يشكو خلالها كثرة العوائق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكان له حجر تسمى « الجهامة » ولها مهر يسمى « الطخرور» فاقام الثلج على الارض بانطاكية وتعذر المرعى على المهر فقال المتنبيُ ارجوزته هذه ومن قرأها حسب بدوياً يصف الخيل .

كل هذا من آثار مدرسته الاولى ولقد اثرت فيه هذه المدرسة من الناحيتين المادية والمعنوية حتى انه اذا تغزل كان يتغزل بالاعرابيات :

هام الفؤاد باعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

واذا شبه في غزله جرت على خاطره في الحال تشبيهات اهل البادية ، فالرماح والسيوف ادوات يلجأ اليها في هذا الغزل :

من طاعني ثغر الرجال جآذر ومن الرماح دمالج وخلاخل

ولذا اسم اغطية العيون جفونها من انها عمل السيوف عوامل

على انكم تجدون في بعض الاحوال آثاراً حضرية الى جنب هذه الآثار البدوية خالية من السيوف والرماح وما شابه ذلك :

لبسن الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا

وضفّرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

نعم انكم لتجدون في بعض غزله وشي الحضارة ونعومتها :

حسان الثني ينقش الوشي مثله اذا مسن في احسامهن النواعم

ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

ليس معنى هذا ان المتنبيُ لم يصف مشاهد الحضر ولكن البادية شغلت القسم الاعظم من خياله فاذا وصف مشهداً من مشاهد الحضر عادت الى ذهنه في الحال صور البادية لنضرب مثلاً لذلك .

من قوله في قصيدة يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي وقد تصدى لوصف بحيرة طبرية :

لولاك لم أترك البحيرة والغور دفيٌ وماؤها شبم

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم

والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كأنها والرياح تضربها جيشا وغى : هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر جف به من جنانها ظلم

فأنتم ترون انه لما أراد ان يشبه الموج شبهه بهدير الفحول ، ولما أراد ان يشبه الطير وهي فوق الحباب شبهها بفرسان خيل بلق ، ولما أراد ان يشبه الرياح وهي تضرب الطير شبهها بجيشي وغي ، فالفحول وفرسان الخيل والجيوش والماء الشبم والقطم كل هذا لايخلو من اثر بدوي ، واذا أردتم ان تعرفوا الفرق بين هذا الخيال البدوي وبين الخيال الحضري فارجعوا الى وصف ماء لشاعر من شعراء العرب ، ارجعوا الى وصف البحتري للبركة ، ومن شروط المقايسة والموازنة ان تأخذوا قصيدتين في موضوع واحد ، اذ انه لا تصح الموازنة بين قصيدتين مختلفتين في الموضوع ، فالمتنبي وصف بحيرة طبرية والبحتري وصف البركة ، وقد سمعتم وصف ابي الطيب فاسمعوا شيئاً من وصف البحتري ، ولا يتسع المقام لذكر الابيات كلها وانما اذكر طائفة منها :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها حبكاً مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فحاجب الشمس احياناً يضاحكها وربّق الغيث احياناً يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

الى غير ذلك من وصف السمك وعومه والرياض و بشاشتها ، وانا أترك لكم الحكم على الفرق بين الوصفين فانكم ولاشك تعترفون معي بان الفضة البيضاء ومضاحكة الشمس وما شابه ذلك انما هو كلام حضري لا أثر للبداوة عليه .

هذا هو الطور الاول في شعره فلننظر الى ابي الطيب وهو في ظلال سيف الدولة فقد وجد في هذه الظلال الوارفة أفقاً مديداً يسرح فيه خياله البدوي فانه لما اتصل بسيف الدولة سلمه الى الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصحب سيف الدولة في عدة غزوات الى بلاد الروم فتصرف المتنبي في وصف هذه الحروب والغزوات أبلغ التصرف اعانه على ذلك امور شتى منها تربيته الاولى ومصاحبته للاعراب وما أثرت فيه هذه المصاحبة من الآثار التي شهدتم منها شيئاً في شعره في طوره الاول وهي كلها سبيل ممهدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى وصف الحروب ، ومنها مصاحبته لسيف الدولة في هذه الغزوات فاذا وصف انما كان يصف بعد العيان فاكثر شعره في سيف الدولة وصف فيه هذه الحروب فلا نتعرض في هذا المقام لشيء من هذا الوصف لان هذا يأتي في الكلام على شعره ، وانما غرضي في هذا المجلس ان أبين ان المتنبي كانت تغلب على شعره آثار البداوة وان هذه الآثار جاءته من مدرسته الاولى وما هذه المدرسة الاولى الا البادية ولئن كان ابوه يسافر به من البدو الى الحضر فان صور البدو شغلت الناحية الكبرى من خياله ، فهل تبدل خياله البدوي وهو في ظل سيف الدولة ، هل اقل من التغني بالابل وبقوته على السير وماشابه ذلك فلننظر في هذا كله .

لما اتصل بسيف الدولة اتصل بملك قد روي من نعيم الحضارة وترفها فأخلق بابي الطيب ان تظهر على شعره آثار هذه الحضارة فأول قصيدة قالها فيه وصف فيها فازة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصورة وحش وحيوان وقد جلس سيف الدولة على هذه الفازة فقال ابو الطيب :

وأحسن من ماء الشبيبة كله ... حيا بارق في فازة انا شائمه
عليها رياض لم تحكها سحابة ... واغصان دوح لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب موجه ... من الدر سمط لم ينقبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً به ... يحارب ضد ضده و يسالمه
اذا ضربته الريح ماج كأنه ... تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه
وفي صورة الرومي ذي التاج ... ذلة لا بلج لا تيجان الا عمائمه

فأنتم تجدون في هذا الشعر صوراً حضرية حتى ان غزل المتنبيء ظهرت عليه آثار رقة الحضر فقد عدل في غزله عن السيوف والرماح الى الأزاهير والرياحين :

سقاك وحيانا بك الله انما ... على العيس نور والخدور كمائمه

ومنه قوله :

وغضبى من الادلال سكرى من الصبى ... شفعت اليها من شبابي بريق
وأشنب معسول الثنيات واضح ... سترت فمي عنه فقبّل مفرقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأجياد غزلان كجيدك زرنني فلم أتبين عاطلاً من مطوق

ومنه قوله :

واني لأعشق من أجلكم نحولي وكل امرئ ناحل
ولو زلتم ثم لم أبكم بكيت على حبي الزائل

ولكنه مع هذا كله لم تفارق صور البادية ذهنه فكان يرجع اليها في بعض غزله فيرجع الى السيوف وأشكالها :

وقد طرقت فتاة الحي مرتدياً بصاحب غير عزهاة ولا غزل
فبات بين تراقينا ندفعه وليس يعلم بالشكوى ولا القبل
ثم اغتدى وبه من درعها أثر على ذؤابته والجفن والخلل

و يرجع الى هذه الصور في المراثي نفسها :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
وترتبط السوابق مقدمات ومايخبين من خبب الليالي

ومنه قوله في هذه القصيدة :

لساحيه على الاجداث حفش كأيدي الخيل ابصرت المخالي

والحفش والمخالي والخبب وارتباط السوابق كل هذا من آثار البدو ولا ريب في ذلك .

فابوالطيب في التبدل اليسير الذي تبدله وهو في افياء سيف الدولة اي في افياء النعيم والترف كان يعود الى شنشنته في التغني بالابل و بالقوة على السير الى غير ذلك من مذاهب الاعراب واهل البدو ، فمن وصفه للابل :

وحكمت في البلد العراء بناعج معتاده مجتابه مفتاله
يمشي كما عدت المطي وراءه و يزيد وقت جمامها وكلاله
وتراع غير معقلات حوله فيفوتها متجفلاً بعقاله
فغدا النجاح وراح في اخفافه وغدا المراح وراح في ارقاله

نعم انه لا يكاد ينسى فرسه ورمحه وسيفه وناقته حتى مواطن الغزل :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سلي عن سيرتي فرسي ورمحي وسيفي والهملعة الدفاقا

ولا يكاد يذهل عن الخيل والبيداء :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفرداً حتى تعجب مني القور والاكم

***

هذه هي شنشنة المتنبي وهو في ظلال سيف الدولة المديدة فلننظر اليه لما غضب على سيف الدولة وثرامت به البيد والفيافي الى كافور الاخشيدي ، فلننظر اليه هل اقلع عن هذه الشنشنة ام لازمته في مصر ، اظن انه لم يقلع وهو في مصر عن شيء من هذه العادات البدوية فقد عاد الى دأبه من ذكر الخيل والقنا والعوالي وماماثل ذلك حتى في اول قصيدته في كافور .

وجردا مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافاً يتبعن العواليا
تماشى بايد كلما وافت الصفا نقشن به صدر البزات حوافيا
وتنظر من سود صوادق في الدجى برين بعيدات الشخوص كماهيا
وتنصب للجرس الخفي سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تناديا

ولما طالبه كافور بذكر الدار التي بناها على البركة بازاء الجامع الاعلى لم يقل شيئاً في وصفها يسمى وصفاً فكأنه يحتقر الدور .

مستقل لك الديار ولو كان نجوماً آجر هذا البناء
ولوان الذي يخر من الما واه فيها من فضة بيضاء

فكان يحاول التخلص من الوصف الى المديح والوصول الى ذكر الجياد والسمهرية السمراء والصوارم البيض والهيجاء

وبسابينك الجياد وما تحمـ ـل من سمهرية سمراء
انما يفخر الكريم ابو المسك بما يبتني من العلياء
وبايامه التي انسلخت عنه وما داره سوى الهيجاء
وبما اثرت صوارمه البيض له في جماجم الاعداء
لا بما يبتني الحواضر في الزيـ ـف ومابطّي قلوب النساء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فاين هذا الخيال من خيال البحتري في وصفه لقصور بني العباس في بغداد ·

نعم لم يقلع عن هذه الشنشنة حتى ولا في غزله فهو لا يحب الا البدويات :

ما اوجه الحضر المستحسنات به كاوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
اين المعيز من الارام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب
افدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام ماثلة اوراكهن صقيلات العراقيب

ولما اصابته الحمى وهو بمصر ووصفها لم يغفل في وصفه عن التغني بما يتغنى به الاعراب عادة

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام
فاني استريح بذي وهذا واتعب بالاناخة والمقام
عيون رواحلي ان حرت عيني وكل بغام راحلة بغامي
فقد ارد المياه بغير هاد سوى عدي لها برق الغمام

فانتم ترون في هذا كله آثار ما يتغنى به الاعراب عادة فسلوك الفلاة بلا دليل واعتياد السير في الهجير بغير لثام والمعرفة بدلالات النجوم بالليل وعد برق الغمام كل هذا مما يفخر به اهل البدو ·

ولما فارق مصر وورد الى الكوفة وصف منازل طريقه فكأن المتنبي متلفع بثوب بدوي في هذا الوصف :

الا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيدبى
وكل نجاة يجاوبة خنوف ومابي حسن المشى
ولكنهن حبال الحياة وكيد العداة ومبط الاذى
ضربت بها التيه ضرب القمار اما لهذا واما لذا

وكذلك لما رثى ابا شجاع فاتكاً وهو في الكوفة بعد خروجه من مصر اشار الى العيس:

لا ابغض العيس لكني وقيت بها قلبي من الحزن او جسمي من السقم
طردت من مصر ايديها بارجلها حتى مرقن بنا من جوش والعلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تبري لهن نعام الدو مسرجة تعارض الجدل المرخاة باللجم

***

هل رغب المتنبيء عن مذاهب اهل البدو في آخر طور من اطوار شعره فانه لما خرج من مصر وقدم العراق ثم شخص من العراق الى بلاد فارس اتصل بابن العميد وبعضد الدولة وعرف ان الذين يجالسهم في فارس هم غير الاعراب واشار الى ذلك في اماديحه في ابن العميد :

من بلغ الاعراب اني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وملات نحر عشارها فاضافني من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدئاً متحضرا

نعم جالس المتنبيء في بلاد فارس امثال رسطاليس وبطليموس وجارى الفرس في عاداتهم في النيروز في اتخاذ اكاليل من النبات والزهر ولبس هذه الاكاليل :

مالبسنا فيه الاكاليل حتى لبستها تلاعه ووهاده

وشهد مشاهد تأخذ بمجامع القلوب مثل شعب بوان :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ومع هذا كله فقد بقي بدوياً قحاً كما كان في صباه شهد هذه المشاهد كلها فلم يزهد في اعرابيته ولئن رق غزله بعض الشيء وخرج من التغزل بالبدويات الى التغزل بالشاميات :

شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت به فاها
فليتها لا تزال آوية وليته لا يزال مأواها
تبل خدي كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها
ما نفضت في يدي غدائرها جعلته في المدام افواها

لئن رق هذا الغزل بعض الشيء ولئن تبدل خياله بعض التبدل فما تبدلت اعرابيته حتى انه عاد في القصيدة نفسها التي تغزل فيها بالشاميات الى ذكر الغزو والصيد وقد كنت تلوت عليكم ابيات هذا الغزو وهذا الصيد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان اعشبت روضة رعيناها او ذكرت حلة غزونا ا

وعاد الى التغني بالقنا والطعان :

فاما تريني لا اقيم ببلدة فآفة غمدي في دلوقي وفي حدي

يحل القنا يوم الطعان بعقوتي فاحرمه عرضي واطعمه جلدي

تبدل ايامي وعيشي ومنزلي نجائب لا يفكرن في النحس والسعد

لئن بدلت هذه النجائب ايامه وعيشه ومنزله فما بدلت اعرابيته ، وارجوزته في عضد الدولة وقد خرج للصيد دليل على تعلقه باهداب هذه الاعرابية وهي من آخر شعره :

ما اجدر الايام والليالي بان تقول ماله ومالي

فآثار مدرسته الاولى ظاهرة على شعره من ابتداء امره الى منتهاه .

دمشق : في ١٥ آذار سنة ٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net